تـوبـة اللهِ والـراعي والـرعيّة!

"وقد جزمتُ في نفسي ألاّ آتيكم في غمٍّ"

آلم بولسَ في كنيسة كورنثوس العديدُ من الأخطاء، بعضها أخلاقيّ وأخرى خصومات... الخ، فأرسل لهم رسالةً يؤنّبهم بها بقساوة، وعدَلَ عن زيارتهم حينها، "وإنّي استشهد على نفسي أنّي لإشفاقي عليكم لم آتِ أيضاً إلى كورنثوس"، لأنّه لو أتى كان سيكون قاسيّاً جدّاً بتأديبه لهم! فاكتفى بالرسالة وعدل عن الزيارة.

بلغَ بولسَ أنّ أهل كورنثوس تأثّروا كثيراً بكلماته "وتابوا"، فعاد في الرسالة الثانية هنا يفسّر لهم سبب قساوته وبحنان أبويّ يعِدُهم بزيارة قادمة.

قد يكون غريباً جدّاً للبعض أن يقرؤوا عبارة "تاب اللهُ"! وهنا نجد أنّ "بولس قد تاب" أيضاً وغيّر مخطّطه! إنّ علاقة الله والراعي مع الرعيّة هي علاقة ديناميكيّة من اتجاهَين. من جهة الله والراعي هي ثابتة المحبّة والحركة. ولكن ما يحدّدها أيضاً هو حركة الجهة الثانية في الرعيّة!

علينا أن نتوقّع في حياة الرعيّة ضعفاتٍ مرّات عديدة، إمّا بشكل فرديّ بين أبنائها (غالباً) أو بشكل حتّى جماعيّ. لا يمكننا أن ننكر واقع واحتمال الخطيئة الذي يحيط بنا. وكثيرون منّا مرّات غير قليلة يكونون "مبيعين لسلطان الخطيئة" (روم ٧، ١٤). مهمّة الراعي هي أن يقف أمام الله وتجاه خطيئة ما في الرعيّة فيدفعه الروح ليس إلى التعليم فقط بل إلى التأديب، فإذا ما كانت الخطيئة فادحة جاء التأديب قاسياً. ليس الراعي معلّماً للدِّين وحسب! الراعي أبٌ حنون تؤلمه خطيئتُنا أكثر مما تؤلمنا، فلا يرضاها فينا حين نحن نرضى! لا توجد أقسى من عبارة بولس: "إنّي لإشفاقي عليكم لم آتِ..."! ولكن لا يوجد أكثر منها تعبيراً عن ألمه للضعفات التي يشير إليها في كنيسة كورنثوس. كانت اللهجةُ قاسيةً بمقدار ما فيها من محبّة، ولهذا جاءت مقبولة!

ما هذا التبدّل في موقف بولس؟ انقلاب جذريّ تماماً! نعم لأنّ العلاقة تحرّكت من الجهة الثانية فتبدّل لونها من الجهة الأولى!

التوبة هي "تغيير الطريق"، العودة والتراجع عن أعمال لا نرضاها (حين نرضى بالله ربّاً وأباً). التوبة هي مشاعر ندامة على مخالفات في حياتنا لمن عاهدناه أن نحيا حياته. التوبة هي عودة إلى الأحضان الأبويّة. فكما أنّ رباط العلاقة بين الرعيّة وبين الله والراعي مهدّد من الخطيئة فهو مشدّد من البرّ. قد "يُغضبُ" واحدٌ من الرعية الله ويؤلم الراعي، ولكن يمكن أيضاً أن يُسِرِّ أحدُهم اللهَ ويُفرح الراعي: "فإنّي واثق بجميعكم أنّ فرحي هو فرحُ جميعكم".

ليس غريباً أن "يتوب الله" عن قرار له تجاه الرعيّة إذا ما "تابت" هذه الأخيرة عن خطيئة فيها. حركة الله نحو البشر حركة مخلِّصة بالحنان حيناً وبالقساوة حيناً آخر، من دافع المحبّة ذاتها.

إنّ الرجوع إلى الله يبدّل عنده التأديبَ بالرأفة يقول النبيّ عاموس (٥، ١٥)، ويعيد عند الله رضاه فيصرف غضبه (هوشع ١٤، ٢-٩)

إنّ اللهَ "يريد أن جميع الناس يخلصون" (١تيم ٢، ٤). ولكن خطيئة الإنسان تحوِّل محبّة الله من الحنان إلى "المعاقبة". لكن القصد الإلهيّ هو "التطبيب" فحين يستعصي المرض – الخطيئة يقسو العلاج. إلاّ أنّ الله لا يرغب بالمعاقبة بل بالخلاص، لذلك إذ ما عدل الإنسانُ عن خطيئته وتاب، يعدل الله عن قساوته إلى الحنان، "ويتوب"! توبتنا عن خطايانا تجعله يتوب عن قساوته. لا يتوب الله عن خطيئته – حاشى! بل يبدِّل الكيَّ بالحنان! "مَن لا يؤدِّب ذاته يؤدِّبه الله". هذا ما يقوله الربّ على لسان أرميا النبيّ: "تارّةً أتكلّم على أمّةٍ وعلى مملكة بالقلع والهدم والإهلاك. فترجع تلك الأمّة عن شرّها "فأندم" عما قصدتُ أن أصنعه بها. وتارّة أتكلّم على أمّةٍ ومملكةٍ بالبناء والغرس. فتفعل الشرّ في عينَي فلا تسمع لصوتي "فأندم" على الخير (الحنان) الذي قلتُ أنّي أحسن إليها به" (أرميا ١٨، ٧-١٠). وهكذا "ندم" الربُّ على الشرّ (القساوة) الذي قال إنّه سيفعله بالشعب، الذي عبد العجل الذهبيّ عوض الله الحيّ، بعد تضرّع موسى راعيهم وصلاته الحارّة: "ارجعْ يا ربّ عن حموّ غضبك واندمْ على الشرّ بشعبك" (خروج ٣٢، ١٢-١٤). هكذا "لما رأى اللهُ أعمال أهل نينوى أنّهم رجعوا عن طريقهم الرديئة "ندم" الله على الشرّ الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعْه" (يونان ٣، ٩-١٠).

نعم، إنّ مَن يستقطب حنان الله أو يستجر غضبه (بما في هذه الكلمات من تشابيه بشريّة للتعبير فقط) هو برّنا أو خطيئتنا! "الله محبّة" والمحبّة تؤدّب والمحبّة تنسكب حناناً كلّ مرّة حسب خير الإنسان!

بمحبّة الله يقتدي الراعي. وهنا بولس، كربّه، عندما بالغ أبناء الرعية بالخطيئة و"قساوة القلب" أدَّبهم بأقسى الكلمات وأعرض عن زيارتهم، ولما انكسر قلب الخطأة وعادوا بالتوبة، تاب بولس عن قساوة محبّته وانسكب بحنانه الأبويّ يعزّيهم ويمدح إيمانهم.

الرعيّة تحدّد رعاية الراعي. ما يعرفه الراعي هو ثباته في المسيح، أي ثباته على كلمة الحقّ وثباته في المحبّة. فيعمّ الفرح حين يكون الجميع في الحقّ إلى جانب الراعي ويصير كما يقول بولس "فرحي هو فرح جميعكم". أمّا إذا عمّت الخطيئة والقساوة والخصومات والشقاقات فهذا يخلق في قلب الراعي المحِبّ "شدّةَ كآبةٍ وكَرَبَ قلبٍ... ودموع".

يكلّم الراعي رعيّته "بلغتها"، فهو مضطرّ للكلام مع ثقافتها. إذا ما ارتفع مستوى المعرفة رفع الراعي مستوى الوعظ والتفكير، وإذا، لا سمح الله، ما انخفض يبسِّط الكلمات. إذا غار أبناء الرعيّة في الخدمة حوّل الراعي الكلام للشكر، وإذ ما تكاسلوا دعا بقساوة كلماته للتوبة والنهوض. تصرّفات أبناء الرعيّة تستخرج من قلب الراعي المحِبّ الكلمات والمواقف! الشفاء يستدعي الفرح والمرض يستدعي الدواء.

لا يطلبنَّ أبناءُ الرعية من الراعي تصرّفاً محدّداً، بل ليقدِّموا ما يستدعي التصرّف المنشود من راعيهم. العلاقة بين الله والرعيّة ومع الراعي ليست مثاليّات نظريّة، إنّها علاقة ديناميكيّة مرّات قاسية وأخرى راضية، وتحدّد وجهَها توبةُ الرعيّة وحياة الصلاة والخدمة فيها!

"وأنتم تقولون ليست طريق الربّ ثابتة مستوية، فاسمعوا الآن: أطريقي هي غير مستوية؟ أليستْ طريقكم غير مستوية؟" يقول الربّ على فم حزقيال النبيّ (١٨، ٢٥) للشعب المتأرجح بين البرّ والشرّ.

"يا إخوة، إنّ الذي يثبّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله". لقد ثَبَتَ بولسُ بالمسيح لكن لم يثبت شكل علاقته بالرعيّة بل تبدّل. لقد صمّم ألاّ يزورهم ثم تاب وعاد يعدهم بالزيارة... الخطأ الذي نقع فيه مرّات عديدة هو أن نتصوّر شكل الراعي وعلاقته بالرعيّة مستمدّينه من رسوم نظريّة إنجيليّة ولكن بقطع النظر عن واقع الرعيّة. كما يليق بالراعي أن يتصوّر علاقته بالرعيّة من الله، على الرعيّة أن تصوّر علاقة الراعي بها من ثباتها بالله والفضائل الإنجيليّة، وغياب هذا الأمر الأخير سيقتضي تبديلاً في "عاقبة المحبّة"، للمحبّة عاقبتان أوّلهما لحالات البرّ وهي الحنان، وثانيهما لحالات السوء وهي القساوة.

لا يتأرجح بولس مع الرعيّة، إنّه ثابتُ بالله وبالمسيح يؤدِّب حيناً ويعطف حيناً آخر، فالبتأديب وبالحنان يثبِّتُ الرعيّةَ بالمسيح، آمين.